التداعيات الأخلاقية للعقلانية الغربية

د. عبد الرحمن الرفاعي*

مقدمة:

تقصد هذه المقالة إعادة النظر في مفهوم العقلانية كما جاء في النصوص الكلاسيكية للحداثة الغربية، واستناداً إلى حقول التجربة من خلال ممارسة هذا المفهوم في المجتمع والدولة وفي علاقة الغرب مع البلدان المستعمرة. وتذهب هذه المقالة إلى أن العقلانية بما هي حصيلة تاريخ طويل للحداثة، بدت عاجزة عن الإحاطة بما صار يُعرف اليوم بزمن ما بعد الحداثة. فالعقلانية التي نذرت نفسها لاستنقاذ العالم من تأخره وأوهامه، وفوضاه، دخلت أخيراً في ما ينافي قيمها الأولى. حتى السؤال الذي أنتجته ليعثر لها على طريقة فضلى لسيادة العقل وتحقيق الخير العام، ما فتىء أن انقلب عليها. لقد صار سؤالاً استجوابياً لما يقدمه المشهد العالمي في مستهل القرن الحادي والعشرين، من تغييب لأحكام العقل وشرعة حقوق الإنسان، ولقد ظهرت الصورة، كأنما انقلبت العقلانية على نفسها، فاستحالت طوطماً للخديعة بعدما كانت انجزت فلسفتها العظمى في تأليه الإنسان. عندما استهلت العقلانية بيانها كانت مدفوعة بما أملته عليها حاجتها التاريخية، فكان عليها أن تتوسل الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان، وأن تؤكد وجوب أن يغادر العالم فضاء الوعي الأيديولوجي بما هو فضاء مكتظ بالأوهام، إلى رحاب الوعي الصارم. غير أن

* باحث في الفلسفة الغربية، سوريا.

السيرورة التي حكمت العالم على امتداد قرنين متعاقبين انتهت إلى منعطفات تراجيدية. وكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية علامتين من علامات تحولها في اتجاه اللاعقلانية الجائرة. أما علامة التحول الكبرى فهي تلك التي انتهت إليها العقود الخمسة من الحرب الباردة. ما رتب انهيار منظومة تاريخية كاملة من ثوابت الفهم، وأنظمة القيم، وعلاقات القوة، في العالم كله. ربما كانت الحرب الباردة تحصيلاً هادئاً للعقلانية، عندما أرادت أن تستريح من تمجيدها للعنف إلا أنها ما كانت لتجنح إلى مثل هذه المسالمة الماكرة، لو لا أن انضبط العالم بتوازن مثير للهلع... وإلا لكان استأنف الغرب السياسي هذيانه العنيف، ومشى بخُيَلاء نادر خلف العقل الهيغلي؛ مطمئناً لفلسفة القوة، بوصفها علة التاريخ، وسبب اشتغال العقل وسلواه. سنلاحظ أن هذه الفلسفة [- فلسفة هيغل - الأكثر اشتهاراً في بيان مراحل ظهور الوعي، وتحقيب التاريخ بوصفه محكوماً بالعقل] «تميل الى تشبيه مدار هذا الأخير، أي مدار الروح، بمدار الشمس. فإذا كان نور الشمس يسير من الشرق إلى الغرب، فإن ضوء العقل يتحرك في الوجهة نفسها، ذلك أن آسيا هي بداية مسار العقل، أي البداية المطلقة للتاريخ، وأوروبا هي الغرب الفاصل أو نهاية التاريخ...»

جرى هذا التنظير الفلسفي مجرى اليقين في غريزة الغرب السياسي. أسس «روحياً» لحملات القوة، وسوغ لمقولة استعمار الشرق، فجعلها تاريخاً لم تنته أحقابه بعد. لقد اعتبرت عقلانية التنوير أنها هي نفسها التاريخ. وهي نفسها البديل للعقلية اللاتاريخية التي صنعت جهالة القرون الوسطى تحت تأثير المؤسسة المسيحية؛ التي رأت إلى التاريخ كما لو كان فضاء سكونياً مقفلاً على ذاته. ومن هذا الاعتبار أيضاً نشأت الإرادة التي أنزلت فكرة الذات من مملكتها الإلهية ومنحتها للإنسان. ومعها أصبح التاريخ مولوداً قصرياً، لجهة كونه مجرد ما يدونه الإنسان عن تفوقه وفعالياته وجبروته؛ أي كل ما يكتبه، أو يروي تقدمه. ولذلك فليس من قبيل التفكه النظري أن يستنتج أيديولوجيو العقلانية الغربية - الأميركية - تعييناً، أن فنّ تكوين الحقائق أهم من امتلاك الحقائق. إنهم يرفعون هذه المقولة التي سوف تؤول بهم إلى ذروة اللاعقلانية؛ بينما هم يدخلون الألف الثالث على حصان التهديد النووي واحتكار السيطرة المطلقة على العالم. إن الخط الذي انتهت إليه العقلانية الحديثة من خلال - مطابقة العقل الكوني الإنساني بين الواقع والمعقول، أي إضفاء العقلانية على المعقول بدلاً من عقلنته - قد دفعت به إلى أن يقبل كشيء معقول عدداً من مظاهر الاستلاب الإنساني؛ لم يعد العقل مجسداً في الأفعال والأنظمة والعلاقات البشرية، أو في أن يسعى إلى البحث عما يحرر من الاستلاب، بل

أصبح يبرر أنواع الاستلاب الموجود. بدا بوضوح أن ضغط الواقع القائم في المجتمع الإنساني المعاصر قد دفع إلى أن يتراجع خطوات إلى الوراء عما كان قد أعلن عنه كغاية له في لحظة انبثاقه، وفي مراحل تطوره الأساسية. لم تعد غاية العقل هي الكشف عن جوانب اللامعقول في الواقع، بل غدت هي البحث عن الصيغة التي يمكن بفضلها اعتبار ذلك الواقع مطابقاً للمعقول. لم تعد الغاية هي التجاوز والتنوير والتغيير، بل أصبحت هي التبرير بعينه. وبدل أن يكون العقل الإنساني موجهاً للواقع المعاصر له، أصبح خاضعاً لهذا الواقع...

«عقلنة» السيطرة الجائرة

تعبر اللاعقلانية عن نفسها، دائماً، بوسائل عقلانية. ذلك أن عقلنة ما هو غير معقول، أي منح المشروعية لسطوة رأس المال والشركات وامتداداتها يستلزم تأليف لغة ذرائعية قصدها إضفاء رداء المعقولية على الذي يحدث. لقد اتخذت العقلانية هنا صفة جديدة كل الجدة. أصبحت بمثابة أيديولوجيا تسوغ الربط بين الإجراءات والوسائل المتوفرة وبين ما هو مرسوم من أهداف واستراتيجيات. لعل دولة ما بعد الحداثة (تحتل أميركا نموذجها الصارخ اليوم) هي أكثر النماذج اهتداءً إلى هذا التحويل الأيديولوجي للعقلانية. عند انتهاء الحرب الباردة أخذت الليبرالية قسطها الوفير من الراحة لكي تؤدلج انتصارها. زعم منظروها أنها نهاية التاريخ وخاتمته السعيدة. ولقد تسنى لهم بوساطة شبكة هائلة من الاتصالات البصرية والسمعية أن ينتجوا المقدمات الأولى لمعارف ما بعد الحداثة. استطاعت «العقلانية الأميركية» أن «تفلسف» اللامعقول الدولي، و«تمفهم» لا توازنيته، وتؤدلج الاستهلاك فتمنحه صفة النظام المقتدر، الآيل إلى إنتاج حقائق معرفية تؤسس للديمقراطية الجديدة وحقوق الإنسان. كان على «عقلانية» ما بعد الحرب الباردة أن تقطع صلتها بالموروث المفاهيمي لحداثة التنوير. لقد حسمت مقالتها المدّعاة بتقريرها أن تداعيات المشهد العالمي لا يعكس فقط نهاية الحرب الباردة، أو نهاية حقيقة خاصة بعد الحرب، بل نهاية للتاريخ بالذات: أي نهاية التطور الأيديولوجي للبشرية كلها، وتعميم الديمقراطية الليبرالية الغربية كشكل نهائي للسلطة على البشرية جمعاء. وفي ما يوحي بنية إظهار عقلانيتها اعترفت الليبرالية بأن انتصارها جرى في مجال الأفكار وهو لما يزل بمعظمه هناك، فلم يكتمل في العالم الواقعي. كأنما يريد بهذا أن تؤسس لـ «ألما بعد». ولـ «ما

ينبغي» أن تكون برامجها الميدانية في العالم. لكي تسود الليبرالية سيادة كاملة، مطلقة، تملك خلالها الزمان والكينونة معاً وبلا منازع.

جعلت الليبرالية – الما بعد حداثية – الاستهلاك، في المقام الأرفع لقيم البشرية. ولهذا لم يكن من قبيل الكلام العادي أن يلجأ حتى فرانسيس فوكوياما – وهو منظر العقلانية الأميركية بامتياز – ليرثي نهاية التاريخ ويعتبرها فترة حزينة للغاية. فهو يبين أن الصراع من أجل الاعتراف والاستعداد للتضحية بالنفس من أجل قضية مجردة، والمعركة الأيديولوجية العالمية التي تتطلب الجرأة والشجاعة والتخيل.. كلها سوف تستبدل بالحساب الاقتصادي. وبالطلب غير المحدود للحلول التقنية، وبالاهتمامات المتعلقة بالبيئة وإرضاء الرغبات المتزايدة للمستهلكين. ففي الفترة اللاحقة للتاريخ لن يبقى سوى الاهتمام بإقامة متحف لتاريخ البشرية... لكن فوكوياما – لا يلبث أن يستدرك ليلتف على نظريته التفافاً دراماً لافتاً في نهاية مقالته الشهيرة «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» فيقول: «**إنني أشعر، وأرى الكثيرين من حولي يشعرون، بالحنين القوي إلى العصر الذي كان فيه التاريخ موجوداً. هذا الحنين الذي سيستمر لبعض الوقت بتغذية التنافس والصراع من العالم اللاحق للتاريخ بالذات... فبالرغم من اعترافي بأن الحضارة التي ولدت في أوروبا بعد العام ١٩٤٥ لم يكن بالإمكان تلافيها، فإنني أشعر بالتمزق تجاهها وتجاه فروعها الأميركية والآسيوية**».. ثم يتساءل بتحير بالغ «**من يدري، قد تكون عصور الملل التي تنتظرنا بعد نهاية التاريخ هي الدافع لجعل التاريخ يتحرك من جديد**»(١)...

هل تشعر الليبرالية، في زمن «الما بعد» العالمي، أنها بلغت حدود «الجنون» حين اضطرها النصر المدوي إلى الوقوع في الفراغ اللامتناهي؟

لقد تنبهت الوجودية إلى هذا بصورة مبكرة، فأجابت بما يشبه الفنتازيا الفلسفية حين وجَدَت أن اللاعقلانية غالباً ما ترتدي العقل لكي تعيد اكتشاف ذاتها، ثم لتظهر حسنها عارية أمام الملأ. ربما هي تدرك أنها مضطرة إلى الهروب من العقل تحت وطأة المصلحة والدوام وغريزة البقاء. لكن سيبدو أن لعبة الهرب من العقل إلى الجنون كأنه عودة إلى العقل بمخيلة أخرى. إن هذه السيرورة التي ستؤول حتماً إلى مآل كهذا، لا بد أن تنتج معرفة على صورتها. معرفة تسعى إلى ملء الخواء، ولو بأيديولوجيات كاذبة. بحيث تكون المحصلة شيوع قناعات واعتقادات كلية، غايتها عقلنة السائد السياسي ونمط حياة التفوق، وغايتها تأسيس المزيد من القدرة على اكتساح العالم عبر تحويل التبرير

الأيديولوجي إلى مقدس يدخل في ثنايا الوجدان العام للبشرية. بهذا يصير كل ما ومن يساهم في تشكيل وترسيخ هذه الغايات معترفاً به، وعضواً في المشروع العقلاني، وكل ما ومن يعرقله يصير لا عقلانياً أو كائناً لا تاريخياً.

تهافت النموذج الأميركي

لقد استحوذت الليبرالية الغربية – من خلال النموذج الأميركي – على القوى الدافعة التي من شأنها إعادة إنتاج الذات وإعطائها مشروعية الوجود من خلال إعادة إنتاج المعرفة الضرورية لذلك. ولهذا كانت استعادة فلسفة التنوير وفي أرقى أشكالها راهنية وقدرة على الإقناع من خلال هيغل، وماركس، وقبلها نيتشه، مثابة عودة «نيتشوية» إلى عقلنة الراهن المستمر.

إنها استعادة ترمي إلى إسباغ مفهمة فلسفية على حادث سياسي تاريخي بعينه. هو حادث نهاية الحرب الباردة ووقوع العالم كله تحت ميزان القوة الأميركية دون سواها. وعلى أي حال فقد فعلت الاستعادة – أقله في لحظة إنشأها كنص – فعلها في خلق طمأنينة ما وراحة بال لدى مفكري «الأمركة» واستراتيجييها. لقد عاش هؤلاء لذة استعادة الثلاثي الفلسفي الألماني – نيتشه، هيغل، ماركس – وأخذوا منه ما يلبي عقلنة الراهن. كان الهاجس السياسي المكسو برداء سميك من الأيديولوجيا، هو إعادة إنتاج الذات الأميركية اللامتناهية. وبدا كما لو أن الحاصل تمثل لرؤية نيتشه في «العود الأبدي لذات النفس». فعندما حسم هذا الفيلسوف الألماني الجدال حول مسألة الحرية والضرورة كان يقول بامتلاء لا مبالي: «**تقول عقيدتي، عش بحيث يجب عليك أن تتمنى أن تعيش من جديد. تلك هي المهمة، وفي كل حال ستعيش من جديد»...**

لقد اكتفى نيتشه بتمجيد التشاؤم بوصفه الوجه الآخر المقابل للوجود. وهو أعطى بهذا فسحة كافية للذين قرأوه عن ظهر قلب – أو بعين أحادية، حتى يعقلنوا ما كان لا يقبله العقل وهو يدور في مثلث الحرية والإخاء والمساواة. إن أفضل من قرأ نيتشه – عنينا مارتن هايدغر – سوف يبين لنا أن كل ما سيحصل في المستقبل ليس سوى عودة ورجوع مقدر وضروري لا مناص منه. ثم يسأل: فما هو الدور الذي تلعبه الحرية في حلقة كهذه؟

ويجيب: من خلال الوجود الخاص لكل واحد يتحدد ما سيكون وما سيصير لأن ما سيصير ليس إلا ما سيعود، وهو ما كان مسبقاً في حياتي الخاصة، وما سيصير في

اللحظة التالية، أي أن كل ما سيحصل في اللحظة التالية هو نتيجة لما يحصل الآن. فالحرية ترتبط بالمسؤولية. فإذا تركنا هذه اللحظة تمر في التخاذل فإن اللحظات التالية ستكون متخاذلة، وستكون من نتائج هذه اللحظة. أما إذا شكلت هذه اللحظة، لحظة فائقة، فإنها ستعود وستكون ما كانت، وستحدد كل اللحظات التالية.

ويرى هايدغر في تحليله للحرية عند نيتشه «**أننا لسنا أحراراً إلا إذا صرنا أحراراً، ولا نصير كذلك إلا بإرادتنا حيث إن الإرادة تحرر كما يقول زرادشت...**»(٢)

يستطيع من يشاء أن يمسك بهذا التأويل كما يستطيع أن يوظفه كما يشاء تبعاً لمقتضى العود الأبدي وإعادة إنتاج الذات.

كان مؤلماً للفيلسوف الفرنسي جان فرنسوا ليوتار أن يتأمل صورة العالم فيجدها على هذا النحو من الخواء والوحشية، يقول ليوتار: «**لقد منحنا القرنان التاسع عشر والعشرون من الإرهاب قدر ما نحتمل. لقد دفعنا ثمناً باهظاً للحنين للكل وللواحد، للمصالحة بين المفهوم والمحسوس، بين الخبرة الشفافة والخبرة القابلة للتوصيل. وتحت المطلب العام للنضوب وللتهدئة، يمكننا أن نسمع دمدمة الرغبة في العودة إلى الإرهاب، في تحقيق الوهم للإمساك بالواقع. والإجابة هي: لنشن حرباً على الكلية Totality، لنكن شهوداً على ما يستعصي على التقديم؛ لننشّط الاختلافات وننقذ شرف الإسم**».(٣)

تعليق المفاهيم

صحيح أن نيتشه كثّف العدم ليعتصر منه الوجود المؤمل، ومات قبل أن تأتيه الطمأنينة بانبثاقة هذا الوجود. تلك الانبثاقة التي سوف نجدها مخبوءة في أعماق مراراته الفلسفية. أما فوكو فرأى إلى العقل كما قدم نفسه منذ البدء، رآه عقلاً انتقادياً فعالاً؛ ثم رأى إلى العقلانية من زاويتيها المتقابلتين: لقد أقر أولاً، بأن مفهوم العقلانية يمكن أن يقيم بين الظاهرات المتزامنة أو المتعاقبة لعصر بعينه جامعة معنى، وروابط رمزية، وظاهراً من مشابهة، أو لعبة مرايا، مما يفسح بدوره المجال أمام بزوغ سؤدد وجدان جمعي كمبدأ للوحدة والتفسير. وأقر ثانياً، بأنه لا يرفض مفهوم العقلانية بقدر ما يجهر بوجوب تعليقه أو بوضعه بين مزدوجين بانتظار تفكيكه هو نفسه. وهكذا لا يتوقف فوكو عند الدعوة إلى تفكيك العقلانية، بل هو يدعو إلى تعليق وتفكيك مختلف المفاهيم والأفهام المقدسة كالعقل، والذات، والأثر، والتأثر، والنشوء والتطور، بل حتى الكتاب والنص

والوثيقة، فضلاً عن معاني الدين والفلسفة، والسياسة، والأدب، والتاريخ، وما سوى ذلك من مقولات التصنيف وقواعد التعبير ومبادئ التوحيد وأنماط التأسيس والتجميع. إن مشروع فوكو في «حفريات المعرفة» هو مشروع المخالفة لخطاب العقلانية الكلاسيكي بأجمعه حتى أنه اكتشف الوجه الموازي الذي لم يفصح نيتشه عنه؛ فبيّن أن حفرياته لا تتوخى الرجوع من «الشبيه» إلى «الشبيه» بل تسعى إلى تفجير هذه الطمأنينة، بقطعها الاستمراريات، وبتحريها عن «السوى» خلف الذات، وعن «الآخر» وراء «الأنا». وبكلمة واحدة حفريات المعرفة عند فوكو هي دعوة إلى عقلانية من نوع آخر، عقلانية المابعد، أي عقلانية المغايرة.(٤)

يذهب البعض إلى أن عقلانية التنوير ماتت بموت التاريخ الذي رفعها إلى الفضيلة. ثم قالوا بولادة التاريخ الذي أنشأ على أنقاضها حادثه السياسي وحروبه. أما عقلانية الراهن فإن هي إلاّ استعارة لغة ما انقضى ومات في سبيل عقلنة اللاّمعقول، أو تعقيل الخواء واللأنظام، وجعلهما معقولين بعقلانية القطب الواحد، ومصالحه، وموجبات تفوقه الأبدي.

إن تفكيك عقلانية ما بعد الحرب الباردة ضرورية لمنع الوحشية، من التهام ما تبقى من فضائل التنوير. إنه تفكيك من أجل أن توضع تلك العقلانية، والعقل الذي يتدبرها، في مجال الفضيحة. ذاك أن الفضيحة هي صنو الستر، وهي الترتيب الوقائي الذي يجب أن يسبق التهيؤ لظهور عقلانية جديدة تعيد «أنسنة» الإنسان، وتملأ الفراغ الذي أحدثه جنون القرن العشرين.

لقد ذهبت العقلانية إلى «أدلجة» نفسها حتى الرمق الأخير، لكنها لم تستيقظ من لا وعي الاستحواذ بعد. هي الآن في ذروة الخروج على العقل، ومع ذلك فهي لم تغادره حتى في اللحظة التي تشطح فيها نحو الجنون. فالعقل، على ما نعرف، يملك قابلية أن يتخذ من ذاته موضوعاً، مثلما يملك القدرة على التخارج نحو العالم واتخاذ معطياته موضوعاً للكلام والفعل. ولهذا فإن جميع الأسئلة تثار خارج العقل وداخله بواسطة العقل إياه.

هل يدخل العالم إلى الألف الثالث محملاً بهذيانات الجنون؟

قد يكون له ذلك، ما دام كل شيء يسقط في الهاوية، ولا يجد من يرده عن موته أحداً.

الإنسان المغلول

لكن ما حصاد كل هذا على الإنسان؟

أظهرت تحولات نهاية القرن العشرين ما ينبئ بهزّة كبرى أصابت عالم الإنسان. فجعلته على غير سويّته وبدلت أحواله على الجملة. وبدا كما لو أنْ خلاصةً يوجبُ قيامة جديدة. غير أن هذه التحولات لم يقابلها، «قوة توازن» تعيد للعالم صوابه، وتفتح للإنسان باباً للتفاؤل. حتى ليبدو الحال، كما لو كان عالم الإنسان يَجري بشغف نادر نحو الكارثة. أو كأنه سائر، تحدوه الرغبة ليصنع جحيمه بنفسه.

هل هذا هو حال إنسان ما بعد التحولات؟

كل شيء، على ما يبدو، يلج فضاء التشاؤم. وليس ثمة ما يوقف السباق إلى الهاوية سوى ما تبقى، مما يُحكى عن حقوق الإنسان. الأمر سيبقى غير موقوف على هذا الحدّ الأخلاقي. فالعقل الذي روُهن عليه لكي ينتظم أزمنة التنوير، «ويؤنْسِنَ» إنسانها، غدا عقلاً محتلاً بشهوة المصلحة والاستحواذ. ولقد ثبت من تجربة العقل على امتداد تسعة عقود فائتة كم كانت نتائجها كارثية على الإنسان. خصوصاً حين جُعِلَ العقل الوسيلة الأشد فظاعة، لاستلاب الكائن البشري. وقبل بضعة عقود كان للمفكر المعروف هربرت ماركوز رؤية ثاقبة في تشكيل صورة مستقبلية للمجتمع الصناعي الغربي؛ لقد كشف عن مقولة الإنسان ذي البعد الواحد الذي خلقه المجتمع ذو البعد الواحد. فالإنسان في هذا المجتمع فقد حقه في الحياة بمجرد أن سلَّم للمجتمع مقاليد أمره. فتوهم بأنه يعيش الحرية فيما هو يغرق في استلاب سحيق لا قاع له.

رأى ماركوز يومها أن «المجتمع المستَلِب» يلبي حاجات وهمية لإنسانه من خلال الدعاية الكاذبة ووسائل الاتصال الجماهيرية الخادعة.

وفي اعتقاده أنه إذا كان المجتمع يحرص – بهذا المعنى – على تلبية هذه الحاجات المصطنعة أفليس ذلك لأنها شرط استمراره ونمو إنتاجيته فحسب، بل أيضاً لأنها خير وسيلة لخلق الإنسان المسلوب، القابل بالمجتمع ذي البعد الواحد المتكيف معه. وما الإنسان ذو البعد الواحد في هذا المعنى، إلا ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية. فإذا كان (هذا الإنسان) يتوهم بأنه حر لمجرد أنه يستطيع أن يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلها له المجتمع لتلبية «حاجاته»، فما أشبهه من هذه الزاوية بالعبد الذي

يتوهم بأنه حر لمجرد أن مُنِحَتْ له حرية اختيار سادته (...) إن المجتمع الصناعي المتقدم لم يزيف حاجات الإنسان المادية فحسب، بل زيف أيضاً حاجاته الفكرية، أي فكره بالذات. الفكر أصلاً هو عدو لدود لمجتمع السيطرة، لأنه يمثل قوة العقل النقدية، السالبة، التي تتحرك دوماً باتجاه ما يجب أن يكون لا باتجاه ما هو كائن. وهذه القوة هي في خاتمة المطاف قوة أيديولوجية. إن المجتمع ذا البعد الواحد قد أحاط الأيديولوجيا بالازدراء والتحقير باسم عقلانية التكنولوجيا، بل هو امتصها وأبطل مفعولها. مع أن هذا لا يعني بالطبع أنه لم تعد هناك أيديولوجيا. كل ما هنالك أن المدينة التقنية أصبحت هي الايديولوجيا، وأبرز وجوهها من هذه الزاوية المذهب العاملي في الفيزياء، والمذهب السلوكي في العلوم الاجتماعية. والسمة المشتركة الأساسية لهذين المذهبين هي الالتزام بالواقع المعطى أو القائم، ونبذ المفاهيم الشمولية أو النقدية التي تهدد بالكشف عن بعد آخر لذلك الواقع.

لم يسفر منطق التحولات الذي افتتحته الحداثة الغربية في بداية هذا القرن، إلا عن إدخال الإنسان في لجَّة اللاَّيقين. أما كارثة التحرر التي تحدث عنها ماركوز فهي تلك التي دفعت العالم إلى فضاء اللاعقلانية بوسائط عقلانية. وهنا تكمن على نحو خاص قوة المجتمع ذي البعد الواحد: أي الطابع العقلاني للاعقلانية. لقد ذهب مديرو هذا النوع من المجتمع إلى تسويق ما عُرف بـ «الفكر الإيجابي» أي الفكر الذي يمهِّد لسيرورة القبول والإذعان وعدم الاحتجاج. إن الأكثر مدعاة للهلع في هذه السيرورة، هو أن الفكر الإيجابي ناجم من امتثالية صارخة للأمر الواقع. كأنما القبول القسري «للإيجابية» هو إيمان بها، واعتقاد بقيمتها العليا. وبحسب ماركوز فإن «**القبول بالفكر الإيجابي هو قبول قسري**»،(٥) ويبين ذلك بالقول إنه قسري لا بحكم الإرهاب، وإنما بفعل سلطة المجتمع التكنولوجي وفعاليته الساحقة المغفلة. في حين أن الفكر الإيجابي يؤثر من هذه الزاوية المحددة على الوعي العام، وبالتالي على الوعي النقدي. كذلك فإن ابتلاع الإيجابي للسلبي يتمثّل في التجربة اليومية العاجزة عن التمييز بين الظاهر العقلاني واللاعقلاني.

إن عالم ما بعد الحداثة، أو ما نسمي وجهه السياسي بـ «عالم ما بعد الحرب الباردة»، هو عالم ممتلئ بالحزن لأنه فَقَدَ ما هو معقول من نظام القيم. هذا العالم هو امتداد لعالم الما قبل، بطبيعة الحال، ولكن هنا على نحو أشد قسوة. لم تكن صورة العالم المنصرم، في زمن ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وخصوصاً بعد الحرب الثانية، صورة تدعو

للتفاؤل، أما صورة عالم اليوم فهي، على ما يبدو أشبه بفضاء مهزوز يغمره الشؤم واللايقين. لا يقتصر الحال على الدول والمجتمعات وإنما وبصفة خاصة على الإنسان الفرد الذي فقد يقينه وانتماءه وجدواه. لقد روى فرنسوا بيرو سيرة إنسان القرن العشرين فرأى إليه ككائن مخدوع بإيمانه ومعتقده السياسي، فقال: «**يعتقد المرء أنه يموت من أجل الطبقة، وهو في الواقع يموت من أجل رجالات الحزب. يعتقد أنه يموت من أجل الوطن، وهو يموت من أجل أرباب الصناعة. ويعتقد أنه يموت من أجل حرية الناس، وهو يموت من أجل أرباح الشركات، ويعتقد أنه يموت في سبيل البروليتاريا، وهو يموت في سبيل بيروقراطيتها. ويعتقد أنه يموت على أمر من دولة، ويعتقد أنه يموت في سبيل الأمة، وهو يموت في سبيل اللصوص الذين يكمون فاها. ويعتقد... ولكن لِمَ الاعتقاد والإيمان في عالم مظلم داجٍ إلى هذا الحد؟ الإيمان، الموت؟... ولكن ألم يحن الأوان لنتعلم كيف نحيا؟**»[٦] إن هذا التوصيف «الشعري» لفرنسوا بيرو ما كان ليأتي على هذا النحو من الامتزاج المرير بين السخط والسخرية لو لم يكن العالم الذي شاهده يدعوه إلى ذلك. ربما كانت القضية الأساسية بالنسبة إلى بيرو هي أنه أفلح أخيراً في أن يستولد من شعوره المركب المتناقض، لحظة تفاؤل. إن السؤال المطروح بقوة في وجه الإنسان المغلول هو في التنبه إلى وجوب فتح كوة حياة، في جدار العدم. وهو ما ينبغي على إنسان الألف الثالث الميلادي أن يلتجئ إليه بعدما طوقته الأغلال من كل جانب.

هل نجرؤ على القول إن نهاية حقوق الإنسان قد ألقت لعنتها على العالم في نهاية القرن العشرين؟

إنّ ما آل إليه العالم يوجب كمية مضاعفة من الشغف بالجرأة عليه، والدفع بأسئلة الشك إلى نهايتها. إن الحق لا ينهيه التاريخ المنتهي ولا الإيديولوجيات المنتهية. فالإنسان هو الإنسان، ذاك الكائن المكافح من أجل أن يعرف نفسه، ليعرف الوجود من حوله...

من أجل أن يكون فاعلاً، وبالتالي من أجل الاعتراف به أولاً وآخراً...

مصادر ومراجع

(١) فرانسيس فوكوياما، «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، الفكر العربي المعاصر، عدد ٨٣-٨٤، تشرين ثاني - كانون الأول ١٩٩٠.

(٢) هايدغر قارئاً نيتشه، ترجمة سعاد حرب، العرب والفكر العالمي، عدد ٤، خريف ١٩٨٨.

(٣) الوضع ما بعد الحداثي، جان - فرنسوا ليوتار - دار شرقيات للنشر، القاهرة، ترجمة أحمد حسان، ص١٠٩.

(٤) ميشيل فوكو: حفريات المعرفة L Archeologic Du Savoir، منشورات غاليمار، باريس، ١٩٦٩، ص٣٢.

(٥) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، راجع مقدمة جورج طرابيشي، ص ١٢-١٣.

(٦) فرنسوا بيرو، التعايش السلمي، المجلد الثالث، ص ٦٣١.